مصر في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية
السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز
(٦٥٧-٦٥٨ هـ/ ١٢٥٩-١٢٦٠ م)
والسلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس نموذجا
(٦٥٨-٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ – ١٢٧٠ م)

د/ نجوان أحمد سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد تخيرت هذين الملكين نموذجاً، من بين سلاطين دولة المماليك البحرية، لأنهما قاما بأعمال جليلة، ستبقى بفضلها ذكراهما خالدة على مر العصور، ماثلة في أذهان الأجيال المتعاقبة من المسلمين، وستظل دائماً وأبداً ملئ السمع والبصر، تتناقلها الكتب.

السلطان الملك المظفّر سيف الدنيا والدين قطز : روت المصادر قصصاً متعددة حول أصل هذا البطل الشهيد، السلطان قاهر التتار، سيف الدين قطز، الذي أضحى أسطورة، تتناول سيرته الأجيال على مر العصور، بعد أن كسر التتار، وأعلى راية الإسلام، بعدما روّع هولاكو بلاد المسلمين، وأوقع بهم القتل والعدوان، حتى صارت دمائهم تسيل في ركاب خيوله، وصار الدمار عنواناً لجيشه، يحل متى سار، ويمشي في أعقابه، ولا يبقي على حجر ولا بشر، ونيرانه لا تبقي ولا تذر.

قال ابن أيبك [١] في كتابه، نقلاً عن الشيخ قطب الدين اليونيني، في تاريخه المعروف بتاريخ بغداد : "كان السلطان الملك المظفر .. رجلاً شجاعاً مقداماً، حتى قيل أنه لم يركب الفرس قبله من الترك أفرس ولا أشجع منه.. وهو أول من اجترأ على التتار وكسرهم، وأخرق ناموسهم، بعد جلال الدين خوارزم شاه.."، الذي قيل عن قطز أنه "محمود بن ممدود"، أبوه ابن عم السلطان خوارزم شاه، وأمه اخت هذا السلطان الشجاع، الذي قاتل ببسالة التتار، ولكنه لم يتمكن من هزيمتهم.

تقول الاسطورة : عندما كان قطز صغيراً في رق استاذه الأول بدمشق، فاتفق أن استاذه لطمه على وجهه، ولعن والديه وجده، فجلس يبكي بكاءً مراً، وامتنع عن الطعام وظل يومه باكياً، فقال الجزري، صاحب الرواية : "ثم إن استاذه ركب إليّ.. وكان قطز عنده عزيزاً.. فأوصى عليه الحاج علي الفراش؛ وكان الحاج علي كبيراً في بيت ابن الزعيم – استاذ قطز – فقال.. استوصي بهذا المملوك ولاطفه وخذ بخاطره.. فأتيته وهو يبكي.. فقلت له : ما هذا البكا العظيم من لطشة.. فقال : والله يا حاج ما بكائي وغيظي من لطشته، فإن السيوف والله ما تعمل فيّ، وانما غيظي على لعنته لوالدي وأبي وجدي، وهم والله أخير من آبائه وجدوده، فقلت له : ومن هو أبوك أنت.. وأنت مملوك تركي كافر ابن كافر، فقال.. ما أنا إلا مسلم ابن مسلم.. إلى عشر جدود، أنا محمود بن ممدود بن اخت خوارزم شاه السلجوقي، ولابد ما أملك مصر

---

[١] كنز الدرر، ج٨، ص ٤١ - ٤٣

وأكسر التتار.. وتقلبت الأحوال إلى أن ملك مصر وكسر التتار، ودخل.. دمشق وطلبني.. وأعطاني خمسمائة دينار، ورتب لي راتباً جيداً..".[٢]

وهناك حكاية أخرى عن رؤيا قصّها قطز على أحد خشداشيه، تذكر بشارة من النبي ρ وقد جاءه في المنام، رواها الشيخ تاج الدين بن الأثير الحلبي حيث قال : أن حسام الدين البركتخاني كان خشداش قطز، وأنه عندما كانا صغيرين في رق ابن الزعيم بالشام، روى له قطز عن منامه الذي رأي فيه النبي يقول : "أنت تملك مصر وتكسر التتار"، ثم قال حسام الدين لابن الأثير : "وكنت أعرف منه الصدق في حديثه. فتنقلت به الأحوال إلى أن صار الحاكم في الدولة المصرية، وما أشك أنه يملك مصر ويكسر التتار..".[٣]

واللافت للنظر في هذه الرواية هو الاستعانة بالرؤية، لتصديق الأقاويل، إذ أن من رأى النبي الكريم في المنام، فقد رآه حقاً – الحديث – فيعد قطز بذلك من العباد الصالحين صادقي الرؤيا، ولاسيما أن هذه الروايات والنبوءات عن الملك وكسر التتار، جاءت كلها بأثر رجعي،[٤] فقد كان كل ما قيل قد حدث بالفعل.

ولكن من المهم القول أن قطز قبل جلوسه على سرير الملك، لم يعبّد طريقه بالقضاء على منافسيه من المماليك البحرية فحسب، وذلك بالقبض على بعضهم ومحاربة البعض الآخر، الذين استعانوا بصاحب الشام الناصر يوسف الأيوبي، فهزمه، وقد تخلى عنه معظم جنده منضمين إلى قطز، كما أنه أيضاً لم يعبأ بالمماليك المعزية، وانتهز فرصة غياب أغلبهم للتصيد، بعيداً عن مقر الحكم، ليعلن نفسه سلطاناً، ولم يستشيرهم أو يرقب قولهم، وإنما في الواقع من حرص قطز على موافقتهم وأخذ رأيهم، بل وتبرير سلوكه عندهم في عزل ابن أستاذه وانفراده بالسلطنة دونه، هم

---

[٢] انظر المصدر السابق، ص ٤٣، وقد حكى أيضاً القاضي تاج الدين بن الأثير، لوالد ابن أيبك الدواداري، الذي كان بينه وبين والده "صحبة أكيدة من أيام استاذ الوالد الأمير سيف الدين بلبان الدوادار الرومي"، وكان القاضي علاء الدين بن الأثير صديقاً لابن أيبك بحكم صلة الآباء، وقد حكى القاضي تاج الدين رواية عن بعض الأمراء، وقد تحدث عن منجم أبصر الطالع لكل من قطز وبيبرس وهذا الأمير الراوي، فتنبأ بأن : قطز يملك مصر ويهزم التتار، وبيبرس يملك مصر وتطول أيامه، ويقتل قطز، والثالث يأخذ أمرية كبيرة يعطيها له بيبرس، وقال : "فوالله ما أخرم قوله كلمة واحدة"، وانظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٢٤، ترجمة الملك المظفر قطز رقم ١٧٠، ص ١٨٩، ١٩٠، حيث ذكر حديث شمس الدين الجزري عن أبيه، المذكور في المتن، وان قطز هو محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه، كما ذكر نبوءة المنجم عن ابن الدريهم الأسعردي وغيره.

[٣] ابن أيبك، المصدر السابق، ج ٨، ص ٤١، ٤٢

[٤] دكتور قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، ص ٤١

كبار علماء الدين، من الشيوخ قضاة الشرع والفقهاء، الذين اجتمع بهم في القلعة، واستأذنهم في خلع المنصور علي الصغير، و".. عذره الذي اعتذر به إلى الفقهاء والقضاة وإلى ابن العديم [٥] فإنه قال : لابد للناس من سلطان قاهر يقاتل عن المسلمين عدوهم، وهذا صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة".[٦]

فهؤلاء الشيوخ هم من يعوّل عليهم قطز في حسم الأمر، إذ أن لهم قوة الاقناع للرعية، فإذا قالوا كلمتهم لصالح الأمير قطز، ودعموا موقفه في نيل السلطنة، فسوف يستطيعون توحيد الكلمة حوله ويُحسم الأمر لصالحه، وهذا ما حدث، فقد تمت السلطنة له، واتحدت الصفوف خلفه، وحلف الجميع له بالولاء والطاعة، وبايعوه على المضي قدماً لنصرة الإسلام والزود عن أرض المسلمين.

وفي ذات الوقت كانت الأخبار تتواتر عن تقدم هولاكو بجنده تجاه بلاد الشام، حيث أخذ حلب بعد حصار دام سبعة أيام "وبذل السيف في أهلها"، وهرع أهل حماه هرباً، فارين بأنفسهم منه جزعاً، ومعهم صاحب حماه المنصور الأيوبي وسائر ملوك بني أيوب، عجزاً عن لقائه، والصمود أمامه، فاستقبلهم قطز وأكرم وفادتهم، وأحسن إليهم.[٧]

ولما استحكم أمر هولاكو واجتاح مدن الشام وقلاعه واحدة بعد أخرى، وقتل الرجال وسبى وانتهك الكثير من النساء والأطفال، وانتهب الأموال، وأضرم النيران وهدم العمران، فأرسل إلى الملك المظفر قطز كتاباً، فيه من الصلف والتطاول ما يكفي لغضبة كل حر أبي لا يرضى بالذل والهوان، ولا يخاف الموت ولا يرهب إلا الرحمن، وكان ملخصه : "..إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه.. فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى.. فتحنا البلاد.. وقتلنا معظم العباد.. فما من سيوفنا خلاص.. فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا كالجبال، وعددنا كالرمال.. ودعاؤكم علينا لا يُسمع.. فإنكم أكلتم الحرام.. وخنتم العهود والأيمان.. وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة.. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب..".[٨]

---

[٥] هو القاضي كمال الدين عمر المعروف بابن العديم، كان وزيراً لصاحب دمشق الناصر يوسف الأيوبي – سالف الذكر – والذي أرسله إلى مصر لطلب النجدة، بعد تهديد هولاكو لبلاد الشام، فاجتمع به قطز في مجلس بالقلعة ضم قضاة مصر وفقهائها الكبار، ليبرر لهم جميعاً خلع المنصور. انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٨٤، ٢٨٥

[٦] المصدر السابق، ص ٢٨٥

[٧] ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ٤٦، ابن كثير، نفسه، ج ١٢، ص ٢٨٧، ٢٨٨

[٨] ابن أيبك، المصدر السابق، ص ٤٧، ٤٨، المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٤٢٧، ٤٢٨

فجمع السلطان قطز الأمراء وشيوخ الشرع والقضاة والفقهاء والأعيان، لمشاورتهم فيما ينبغي اتخاذه من اجرأت للاستعداد لملاقاة العدو الغاشم، وعلى رأسهم الشيخ الجليل عز الدين بن عبد السلام[٩]، "فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام.."،[١٠] إذ كان سلطان العلماء هذا رجلاً ذو تأثير عظيم على الناس كافة، وقوله يعد الفيصل في الفتيا وفي كل أمر. واتفق الرأي على قتل الرسل،[١١] والمسير إلى الجهاد بعد تمام الاستعداد. وكان قطز قد جمع كل الأمراء ومنهم من عاد إلى مصر من البحرية، الذين كانوا قد ذهبوا إلى الشام وغيرها بعد مقتل كبيرهم أقطاي، كما علمنا، وقد عاد من بينهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وعرّف السلطان عن التتار الشيء الكثير، وهوّن عليه شأنهم، وقوى قلوب المسلمين على ملاقاتهم وقتالهم، وعدم الخوف منهم أو التهويل من قوتهم وأعدادهم، ورحب قطز بعودته كثيراً، "فاستدعاه إليه.. وأقطعه قليوب، وأنزله بدار الوزارة، وعظم شأنه لديه..".[١٢]

كما انضم إلى السلطان قطز عسكر من الشام والعرب والتركمان وسائر الأقاليم الإسلامية، فضلا عن الجند المصريين من الأمراء والمماليك في مصر. فلما كان يوم الاثنين خامس عشر شعبان عام ٦٥٨هـ / ٩ أغسطس ١٢٦٠م، خرج الجيش الإسلامي من مصر وعلى رأسه الملك السلطان المظفر سيف الدين قطز، سائراً

---

[٩] هو سلطان العلماء الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن المهذب السلمي، ولد سنة ٥٧٨هـ وتوفي عام ٦٦٠هـ، انتهت إليه رياسة المذهب الشافعي، وقصد بالفتوى من سائر الآفاق، تولى التدريس والخطابة والقضاء بالديار المصرية، وكان قائماً بالأمر بالمعروف لا يخشى في ذلك إلا الله، وكان قوله هو الفصل، انظر ترجمته عند العسقلاني، رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، الطبعة الأولى، ترجمة رقم ١١٨، ص ٢٣٩ وما بعدها، النويري، (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة، مركز تحقيق التراث، القاهرة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج ٣٠، ص ٦٦ – ٧٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٠٣

[١٠] انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٧٢، ٧٣، وقد قال العز فتوته المشهورة : بعدم جواز أخذ مال الرعية حتى ينفذ كل مال وذهب وجوهر عند الأمراء والجند أولاً، وسوف أعود لذكر تفاصيل ذلك في فصل لاحق إن شاء الله، عند الحديث عن مواقف رجال الدين المشهودة في مواجهة الحكام، فلينظر هناك.

[١١] يصف المقريزي تفاصيل قتل هؤلاء الرسل، وهم أربعة كما ذكر، فيقول : "فوسط واحداً بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية. وعلقت رؤسهم على باب زويلة.. ونودى في القاهرة ومصر.. بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله"؛ انظر السلوك، ج٢/١، ص ٤٢٩، بينما يذكر ابن أيبك ان الرسل كانوا "نيف وأربعين نفراً"، وهذا غير منطقي، إذ كيف تعلق كل هذه الرؤوس على باب زويلة، انظر كنز الدرر، ج ٨، ص ٤٨

[١٢] ابن أيبك، كنز الدرر، ج ٨، ص ٤٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٨٧، ٢٨٨، المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٤٢٠، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٥٤، ٥٥

للجهاد في سبيل الله، مدعوماً بكل أجناد بلاد الإسلام، الذين توافدوا عليه من كل بقاع الأرض، للذود عن بلادهم ودينهم وعرضهم، طالبين الثأر لدماء الشهداء من هؤلاء السفاحين الظالمين، وأعلن الذهاب إلى الجهاد بعد أن أتم الاستعداد، وكان قد أرسل الشيخ برهان الدين الخضر السنجاري، قاضي القضاة الشافعي، إلى الشام، موفداً إلى الملك الناصر الأيوبي، مع الصاحب كمال الدين بن العديم، بجواب يعده فيه بالنجدة، وإنفاذ الجيش إليه لصد العدوان.[١٣]

وتصف المصادر سير الجيش في طريقه إلى المعركة، وعندما نزل السلطان بالصالحية،[١٤] توقف ليجمع الأمراء حوله، ويبث فيهم روح النضال، ويحثهم على التضحية للذود عن محارم المسلمين وأعراضهم، متخذاً من الحمية الدينية وسيلته لبلوغ غايته، ومن الترغيب في رضاء الله تعالى ودخول جنته، سبيلاً للوصول إلى مأربه، حيث قال : "يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجهاً.. فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته.. وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين.."، فلم يسع الأمراء إلا الانضمام إلى صفوف جيشه، لم يتخاذل منهم أحد، وحلف الجميع على مناصرته والمسير معه، لدفع هذا العدو الغادر عن بلاد المسلمين.[١٥]

وأمر السلطان قطز الأمير بيبرس بالتقدم لاستطلاع أخبار التتار، فوجد منهم فيلقاً عند غزة، فأجبرهم على الفرار عند وصوله إليها، واستنقذها منهم وملكها، ثم بعث بالخبر إلى السلطان، الذي كان بسائر الجيش في إثره، بعد أن حيّد الفرنجة الموجودين بعكا، وقد تقبل هداياهم، رافضاً عرضهم للمشاركة معه في قتال التتار، بل حذرهم إن حاول أحد منهم تعقب جيشه أن يعود أدراجه فيقضي عليهم قبل لقاء التتار، ذلك لعدم الثقة في نواياهم، إذ كانت الحرب الصليبية قريبة العهد بالمسلمين، ولم يرد أن يتحولوا إلى خنجر في ظهر الجيش الذاهب للجهاد.[١٦]

---

[١٣] ابن أيبك، المصدر السابق، ص ٤٩، المقريزي، نفسه، ص ٤٢٩، ابن تغري بردي، نفسه، ج ٧، ص ٧٣

[١٤] وهي من القرى القديمة، التابعة لأعمال أطفيح بمركز الصف بمحافظة الجيزة، وقد اعتبرت ناحية مالية في الروك الناصري من سنة ٧١٥هـ، انظر محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى ١٩٤٥م، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج٣/٢، ص ٣٠

[١٥] المقريزي، المصدر السابق، ص ٤٢٩، ٤٣٠

[١٦] المقريزي، السلوك، ج١/٢، ص ٤٣٠

وظل بيبرس يناوش طلائع التتر وبعض فيالقهم في كر وفر، حتى وافاه المظفر قطز بكامل الجيش عند عين جالوت.[١٧] فلما كان يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ / الثالث من سبتمبر ١٢٦٠م، التقى الجمعان "وفي قلوب المسلمين وهم عظيم من التتر.. فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان.. فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته : وا إسلاماه ! ثلاث مرات.. يا الله ! انصر عبدك قطز على التتار، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فلما انكسر التتار.. نزل السلطان عن فرسه، ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى"، وبعدما كسر التتر كسرة عظيمة، ركب الجيش أقفية الفارين، بخيل الطلب تحت قيادة الأمير بيبرس، وكان قائدهم كتبغا نوين قد قتل في المعركة. وانتصر الجيش الإسلامي، بفضل الله تعالى، وثبات البطل العظيم السلطان المظفر قطز وأمرائه وسائر أجناد المسلمين الشجعان، وكشف الله هذه الغمة، ونجى بلاد الإسلام من هؤلاء الطغمة الجبارين الظلمة.[١٨]

بعد أن تم النصر على العدو، عاد الملك المظفر قطز إلى دمشق "في أبهة عظيمة وفرح به الناس فرحاً شديداً"، ثم أقر ملوك الشام من الأيوبيين على ممالكهم، مثل الملك الأشرف صاحب حمص، والملك المنصور صاحب حماة، وأرسل الأمير ركن الدين بيبرس لاسترداد حلب من يد هولاكو وطرد التتر منها، ووعده بنيابتها بعد تحريرها، ولكنه بعدما تسلمها أقطعها قطز لعلاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، لأمر وجد فيه المصلحة، وكان ذلك سبباً مباشراً فيما حدث بينهما من جفاء، في نظر بعض المصادر، وعجل بانتقام بيبرس وقتله السلطان الشهيد قطز غدراً بهذه الطريقة البشعة، قبل أن يصل إلى مصر حيث كان أهلها ينتظرون عودة البطل المظفّر منتصراً، وقد أقاموا الزينة والأفراح احتفالاً بقدومه.[١٩]

نقل ابن أيبك الدواداري[٢٠] تفاصيل ذلك عن القاضي عز الدين بن شداد، إنه قال في تاريخه : "أن الملك المظفر قطز، لما ملك دمشق، كان عازماً على التوجه إلى حلب..

---

[١٧] اسمها في معجم البلدان : عين الجالوت، وهى بليدة تقع بين بيسان ونابلس من فلسطين. انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص ٧٦٩

[١٨] ابن أيبك، كنز الدرر، ج ٨، ص ٤٩ – ٦٠، بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج ٩ ص ٦٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٨٩ – ٢٩٥، المقريزي، المصدر السابق، ص ٤٣١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٧٨ - ٨٠

[١٩] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١٤، ص ٦٨٨، ٦٨٩، ابن أيبك، المصدر السابق، ص ٥٩، ٦٠، ابن كثير، نفسه، ص ٢٩٠، ٢٩١

[٢٠] المصدر نفسه، ص ٦٠، ٦١

فوشى إليه واش أن الأمير ركن الدين.. مع جماعة من الأمراء البحرية متنكرين له ومتغيرين عليه، فصرف وجهه إلى ناحية الديار المصرية، وهو أيضاً مضمر الشر، وربما أسرّ ذلك لبعض خواصه. فبلغ ذلك الأمير ركن الدين البندقداري، فخرجوا من دمشق، وكل واحد منهما محترز من صاحبه".[٢١] وقيل أن البحرية جميعاً كان في نفوسهم من قطز وأستاذه عز الدين أيبك حقد دفين، بسبب قتل زعيمهم فارس الدين أقطاي، في السابق، مما جعلهم يفرون ويشتتون في بلاد الشام وغيرها، ولهذا تحينوا الفرصة للانتقام منه، فانقضوا عليه وقتلوه غيلة وغدراً، عندما وصل إلى منزلة القصير،[٢٢] وهو في طريق عودته إلى مصر، ذلك أن ثار أرنب بري أمامه، فساق السلطان قطز ورائه يريد اصتياده، فقنصه رفاق دربه وفرسان جيشه، الذين تعاونوا معه بالأمس ضد الأعداء، فصاروا هم اليوم من تآمروا عليه وتضافروا ضده، وتشاركوا في قتله، إذ تبعه بيبرس ونفر من البحرية، واحتالوا عليه وشلّوا يده بزعم تقبيلها، ثم انهالوا عليه بسهامهم والسيوف، فأردوه قتيلاً، واستشهد بأيديهم في

---

[٢١] عز الدين بن شداد، هو محمد بن علي المتوفي عام ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م، وكتب تاريخ الملك الظاهر، الذي حققه أحمد حطيط، ونشره فرانز شتايز في النشرات الإسلامية، التي تصدرها جمعية المستشرقين الألمان بفيسبادن بألمانية، والكتاب طبع في بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. ويقول المحقق أن ابن شداد هذا هو عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم، وهو ليس القاضي ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف)، الذي توفى بحلب عام ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م، والذي كان سابقاً على عهد عز الدين بن شداد وعلى زمن الدولة المملوكية، وسبب الخلط بين الرجلين اشتراكهما في اللقب من جهة، ومن جهة أخرى أن كلاهما كتب سيرة لسلطان كبير محارب في عصره، فقد أرخ القاضي بهاء الدين بن شداد للسلطان صلاح الدين الأيوبي الكبير، بينما كتب عز الدين بن شداد سيرة الظاهر بيبرس، وكان كل منهما ذو مكانة في الدولة ومقرباً من السلطان في زمنه. يقول اليونيني عن عز الدين بن شداد – مؤرخنا – في كتابه مرآة الزمان، ج ٤، ص ٢٧٠، ٢٧١، والصفدي في الوافي بالوفيات، ج٤، ص ١٨٩، ١٩٠، يتفق معه في أن عز الدين "كان له مكانة عند الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، والملك المنصور.. قلاوون، وحرمته وافرة، وله توصل ومداخلة.."، وذكر ابن الفرات، في تاريخ الدول والملوك، ج٨، ص ٣٣، أنه كان وزيراً ومشيراً ورئيساً ديناً ومؤرخاً "ومعظماً عند الأمراء، محبوباً إليهم". فقد كان عز الدين بن شداد مقرباً من الظاهر بيبرس وكتب سيرته، ولكن - حسبما يقول المحقق - فقد الجزء الأول منها، ولم يبقى سوى جزء صغير يشمل الفترة من ٦٧٠هـ / ١٢٧٢م إلى ٦٧٦هـ/ ١٢٧٨م، ويحتوي سرداً اجمالياً لخصال بيبرس ومناقبه وانجازاته ومحاسنه. وعلى ذلك يكون ما نقله ابن أيبك الدواداري عنه بالغ الأهمية، إذ ليس لدينا النص الأصلي له. انظر تاريخ الملك الظاهر، مقدمة المحقق، ص ١٠ - ٢٠

[٢٢] وردت القصير بهذا الاسم عند المقريزي في السلوك والخطط، وفي كتاب النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٢، يقول المحقق في الهامش رقم ١ : وبالبحث تبين لي أن هذه المنزلة هى القرية التي تعرف اليوم باسم "الجعافرة"، إحدى قرى مركز فاقوس بمدرية الشرقية. وفي القاموس الجغرافي الجعافرة : قرية كانت تسمى القواصر، ثم عرفت بعد ذلك باسم "القصير"، ذكرها المقريزي في الخطط، ج ٢، ص ٣٠٠، بهذا الاسم، وقال : إنها بين الصالحية والسعيدية، ثم ذكرها في موضع آخر باسم "منزلة القصير". انظر محمد رمزي، القاموس الجغرافي، ج ٢/١، ص ١١١

يوم السبت سادس عشر ذي القعدة عام ٦٥٨هـ / ٢٤ اكتوبر ١٢٦٠م، وقالت المصادر أن أول من ضربه كان ركن الدين بيبرس البندقداري، "وهو الصحيح".[٢٣] ودفن بالقصير، حيث استشهد، وصار قبره يقصد بالزيارة، "ويترحم عليه ويسب من قتله"، فبعث بيبرس بعد أن تسلطن، بمن نقل جثمانه إلى مكان مجهول لم يعرف، "وعفى قبره وأثره".[٢٤]

وعاد الأمراء بعد قتلهم الملك الشهيد إلى معسكر الجيش، فوجدوا الأتابك فارس الدين أقطاي المستعرب، جالساً على بابه، فأخبروه بما كان منهم، وعندما سألهم عن قاتل السلطان، أجابه بيبرس بأنه الفاعل، فلم يزد إلا أن قال له : "يا خوند، اجلس على مرتبة السلطان"! وهذا يلفت النظر إلى نظام هؤلاء المماليك الغريب، فانهم لا يعتبرون من قتل سلطانهم العائد منتصراً من حرب العدو، مستحقاً للعقاب أو المحاكمة، وإنما جعلوه يجلس في مرتبة الملك عليهم، ودماء السلطان الشهيد مازالت تقطر من يده !

إذ رأى الأتابك أقطاي - كما تقول المصادر - أن قاتله هذا، الأمير بيبرس، "أحق بالملك وأولى، فوافقه الأمراء على ذلك، وأجلسوا المشار إليه" على تخت الملك.[٢٥]

ورغم محاولة بيبرس طمس ذكرى وقبر البطل المظفّر قطز، إلا أن خبره وسيرته ظلت باقية، تتناقلها الأجيال المسلمة على مر العصور، جزاه الله عن الإسلام وأهله أوفى جزاء.

---

[٢٣] ابن أيبك، المصدر نفسه، ص ٦١، ٦٢، بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٧٣، ٧٤، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١٤، ص ٦٨٨، ٦٨٩، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٢٤، ص ١٨٩، ١٩٠، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٢٠٥ – ٢٠٨، ابن كثير، نفسه، ص ٢٩٠، ٢٩١، المقريزي، السلوك، ج٢/١، ص ٤٣٤، ٤٣٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٢ - ١٠٢

[٢٤] الصفدي، نفسه، ج ٢٤، ص ١٩٠

[٢٥] بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٧٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٣ – ٨٦، ويذكر الشيخ قطب اليونيني، في تاريخه الذي ذيله على مرآه الزمان، أنه مر بقبره في شهر رمضان عام ٦٥٩هـ، وترحم عليه، وكان الناس يزورونه ويترحمون عليه لقتله مظلوماً، ويدعون على من قتله، "فلما بلغ بيبرس ذلك سير من نبشه ونقله إلى غير ذلك المكان، وعفى أثره..". انظر اليونيني (قطب الدين موسى المتوفي ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، نشر دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد – الهند، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م، ج٢، ص٢٨ – ٣٣، ولكن في كتاب السلوك، يذكر المقريزي أن قطز حمل بعد ذلك إلى القاهرة "فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين ..ثم إلى القرافة، ودفن قريباً من زاوية ابن عبود"، انظر السلوك، ج ٢/١، ص ٤٣٥

وكانت مدة سلطنة سيف الدين قطز أقل من السنة بيومٍ واحدٍ، ذلك أنه تولى الحكم في ١٧ من ذي القعدة عام ٦٥٧هـ / الموافق ٨ نوفمبر سنة ١٢٥٩م، ثم كان اغتياله في يوم ١٦ ذي القعدة أيضاً من العام التالي ٦٥٨هـ / ٢٤ أكتوبر ١٢٦٠م.

وقام بعده في السلطنة **الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس البندقداري**[٢٦] :

لم يحظى سلطان بشهرة طابقت الآفاق في دولة المماليك بقدر ما نال الظاهر بيبرس (٦٥٨ – ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ – ١٢٧٨م). فقد ذكرته المصادر المعاصرة بالبطولة والشجاعة، والعدل والاحسان، والدهاء والحصافة وحسن التدبير، وألفت فيه الملاحم والأساطير، وكتب المؤرخون سيرته بالفخر والتمجيد.[٢٧] بل بلغ من كثرة الألقاب التي نعت بها في حياته ما كلّ القلم من كتابته، فيذكر القلقشندي[٢٨] على سبيل المثال أنه : "السلطان، الملك، الظاهر، السيد الأجلّ، الكبير، العادل، المجاهد المرابط، المؤيد المظفر المنصور، ركن الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، سيد الملوك والسلاطين، قاتل الكفرة والمشركين، ناصر الحق مغيث الخلق، خادم الحرمين الشريفين، محيي الخلافة المعظمة، قسيم أمير المؤمنين، بيبرس بن عبد الله الصالحي..".

هو إذن السلطان جليل القدر الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري الصالحي،[٢٩] وقال عنه المقريزي : "كان بيبرس قفجاكي الأصل، طويل القامة أسمر اللون، في عينه زرقة، وبإحدى عينيه نقطة صغيرة، صوته جهورياً، وكان شجاعاً عسوفاً عجولاً.."، وقد بيع بثمن بخث، لا يتعدى ثمانمائة درهم،[٣٠] ورد إلى بائعه

---

[٢٦] نسبة إلى الأمير أيدكن البندقدار، الذي اشتراه بالشام. وبندقدار لفظة فارسية مركبة، من بندق : وهو ما يستخدم في قذف الأعداء، ودار : ممسك، فيكون المعنى : حامل كيس البندق في القتال. انظر صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٨. أما كلمة "بيبرس" فتعني بالتركية : أمير فهد، انظر ابن تغري بردي، نفسه، ص ٩٤، حاشية المحقق رقم (٢).

[٢٧] انظر سيرة الظاهر بيبرس، خمسين جزء في خمس مجلدات، الزام عبد الرحمن محمد، الهيئة العامة للكتاب، الطبعة الثانية، عن طبعة الأزهر، القاهرة، ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م، الديناري، سيرة الظاهر بيبرس، دار القلم، بيروت – لبنان، ١٩٨٢م.

[٢٨] صبح الأعشى، ج٦، ص ٦، وانظر ايضا السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م، ج ٢، ص ٤٨، ماجد، نظم دولة المماليك، ج١، ص ٣٠.

[٢٩] المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٣٨، السلوك، ج٢/١، ص ٤٣٦، ٤٣٧.

[٣٠] السلوك، نفسه، ص ٦٣٧، ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ٦١. ويذكر د. ثروت عكاشة في كتابه، المرجع السابق، ج١، ص ١٦، أن بيبرس بيع بثمانية دينار فقط، وهذا غير منطقي، إنما يساوي أربعين ديناراً، بحسب الدراهم الثمانمائة. وهذا ما أثبتته أيضاً د. محاسن الوقاد في كتابها : مصر في العصر المملوكي، دراسات حضارية، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة،

ثانياً بسبب هذا العيب الذي شاب عينه، ثم اشتراه الأمير أيدكن البندقدار بالشام، والذي نسب بيبرس إليه.

يروي الشيخ عز الدين ابن شداد[٣١] : أن الأمير بدر الدين بيسري أخبره بأن مولد الملك الظاهر كان بأرض القفجاق في حدود عام ٦٢٥ هـ تقريباً، وقد هرب منها وأهل بلاده عندما هدد التتار البلاد عام ٦٣٩ هـ، وقال بيسري : "وكنت أنا والملك الظاهر فيمن أسر (عند ملك أولاق، احدى البلاد المجاورة)، وكان عمره إذ ذاك أربعة عشرة سنة تقديراً، فبيع فيمن بيع.. ثم افترقنا واجتمعنا في حلب.. ثم افترقنا، فاتفق أن حمل إلى القاهرة، فبيع على الأمير علاء الدين أيدكن البندقدار.. إلى أن انتقل منه بالقبض عليه في جملة ما استرجعه الملك الصالح نجم الدين أيوب، في شوال عام ٦٤٤ هـ..".

ويضيف الأمير بيبرس المنصوري [٣٢] : أن الظاهر بعدما تسلطن، صار الأمير علاء الدين البندقدار في جملة أمراء دولته، وكان يبره ويراعيه ويعوده في مرضه، وكانت بداره سدرة، يعلقه فيها إذا غضب عليه وهو صغير لتأديبه، فزاره يوماً وأبصرها فقال له معاتباً : "أتعرف هذه السدرة؟ فقال : يا خوند أعرفها ولولاها ما جاء هذا." يقصد أنه لولا هذا الحزم ما صار السلطان بهذه القوة ولا ذاك العزم، "ولما خرج السلطان من عنده، بادر الأمير وقطع السدرة من أصلها، خوفاً أن يبصرها السلطان.. ويتذكرها". وإن كانت هذه الرواية تعد من الطرائف، إلا أنها تفصح عن تصرف بيبرس مع أستاذه القديم، الذي يدين له بحسن التربية، وقد عامله بالوفاء والرعاية

٢٠٠٦م، ص ٣٦٢. ومن الطريف أن ستانلي لين بول، في كتابه : تاريخ مصر في العصور الوسطى، يقول أن بيبرس جلب لبائعه فقط عشرين جنيهاً – حسب الترجمة – بسبب العيب الذي شاب عينه. انظر : Lane Poole "A History of Egypt in the Middle Ages", New York, Scribner/s Sons, 1901. وقد نقله إلى اللغة العربية أحمد سالم سالم، وراجعه د. أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م، ص ٤٩٤، ٤٩٥. أما الدينارى، فيكتب أسطورة عن أصل بيبرس وأنه لم يكن إلا مسلماً بن مسلم، واسمه "محمود"، وقد اشترته سيدة كريمة تدعى فاطمة، وخلصته من أذى سادته الأول بمبلغ مائة دينار، واسمته بيبرس على اسم ولد لها توفى، وربته في بيتها كولدها. انظر سيرة الملك الظاهر، ص ٣٢- ٣٤. وانظر سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٢٠٧، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٢٣.

[٣١] نقل لنا الرواية أبو المحاسن في كتابه، النجوم الزاهرة، نفسه، ص ٩٥، ٩٦، كما قال نقلاً عن الذهبي : ان الأمير أيدكن عندما اشتراه أظهر شجاعة ونجابة، لا ينبغي لصاحبها إلا أن يكون عند ملك، فأخذه منه الملك الصالح نجم الدين، ولكن قيل أنه صادره ضمن ما صادر منه حين غضب عليه وحبسه عام ٦٤٤ هـ.

[٣٢] انظر بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ص ١٢.

الذي يستحقها منه، وأظهرت معدن هذا السلطان النبيل الذي لا يجحد فضل أستاذه وسيده الأول.

ذكرت المصادر أن الصالح نجم الدين أيوب قد أخذ بيبرس ضمن من صادرهم من مماليك الأمير أيدكن البندقدار، وجعلهم من جملة المماليك البحرية، وارتقي عند الصالح أيوب وجعله أميراً. وأظهر شجاعة فائقة وبطولة واقدام في كل ما خاضه من المعارك، سواء لصد الصليبيين في المنصورة وفارسكور، أو بعد ذلك حين قتال التتار في عين جالوت، وطرد فلولهم من حلب. ثم عاد ليقتل السلطان الشهيد قطز ويجلس مكانه في سدة الملك، وذلك يوم السبت سابع عشر ذي القعدة عام ٦٥٨هـ (٢٥ أكتوبر ١٢٦٠م). وتلقب بيبرس بالملك القاهر في بداية الأمر، ثم خوفه الوزير الصاحب زين الدين بن الزبير من شؤم ذلك الاسم فغيره، واختار أن يكون الملك الظاهر أبو الفتح [٣٣] بيبرس البندقداري.

يعتبر بيبرس لقدراته العسكرية الفائقة، ومهاراته الادارية الفذة، ودهائه السياسي، وانجازاته العبقرية في كافة المجالات، هو المؤسس الحقيقي للدولة المملوكية الوليدة، وعلامة فارقة لمرحلة هامة في تاريخ دولة المماليك البحرية، حيث كانت العشر سنوات التي سبقت اعتلائه العرش، فترة اضطراب وعدم استقرار، أو فوضى سياسية [٣٤]، حكم خلالها خمس سلاطين، اغتيل منهم ثلاثة، ونجى اثنان لصغر سنهما، ولعبت العصبية دوراً محورياً في فرض الأمر الواقع لهذا الأمير "الأقوى" ركن الدين بيبرس، الذي وجد من طائفة المماليك البحرية عوناً كبيراً له، استطاع بفضله اخضاع سائر المماليك لحكمه.

فقد كانت طائفة المماليك البحرية هى القوة الضاربة في الجيش المملوكي، وكان قطز من المماليك المعزية الذين انفرط عقدهم سريعاً بعد مقتل المعز أيبك (٦٥٥هـ)، ثم خلع ابنه المنصور علي (٦٥٧هـ)، وعندما اغتيل قطز، لم يجد قاتله بيبرس أي معارضة تذكر من اتباع السلطان المغدور، بل وافق سائر الأمراء على جلوسه في مكان من قتله، وحلف له اليمين جميع الأمراء والعسكر بالدهليز السلطاني، وتوجه بعد ذلك إلى قلعة الجبل، وتسلمها من الأمير أيدمر الحلي نائب السلطنة بالقاهرة، في

---

[٣٣] انظر المقريزي، السلوك، نفسه، ص ٤٣٧، وقد ذكر هذا الاسم أكثر من مصدر، مثل العقد الثمين لابن دقماق، والذيل على مرآة الزمان لليونيني، والمقريزي في خططه، وابن تغري بردي في المنهل الصافي، وان كان الأخير كتبه "أبو الفتوح"، في النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٩٤، وقد ذكر ان مولده في بلاد "القبجاء" عام ٦٢٠هـ تخميناً.

[٣٤] استخدم د.قاسم عبارة "سيولة سياسية" ليعبر بدقة عن هذه الفترة المضطربة من بدايات الدولة، التي كانت تعاني عدم استقرار سياسي في ذلك الوقت، انظر عصر سلاطين المماليك، ص ٨٢، ٨٣.

ليلة الاثنين تاسع عشر ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ (٢٧ أكتوبر ١٢٦٠م)،[٣٥] بعد أن وعد من فيها بوعود حسنة.

وأعلن للناس : أن ترحموا على سلطانكم الملك المظفر، وادعوا للملك الظاهر بيبرس، "فغم الناس ذلك، وخافوا من عودة المماليك البحرية"، إذ كان لهم جور عظيم وغيرهم في الحكم، فما بالهم وقد أضحوا هم الحكام![٣٦]. وكان بيبرس يتمتع بالفطنة والذكاء الشديد، فعلم أن تخوف الناس من البحرية سوف يحول دون فرحتهم بالنصر، وسيزيد من حزنهم على سلطانهم البطل الشهيد قطز، فأراد أن يمحي أثر ما فعلته البحرية في ماضيها القريب، ويجعل الناس تستقبل الحاضر بالبهجة والترحاب، فعمل على رفع ما كان قد فرضه قطز من ضرائب طارئة قبل ذهاب الجيش لجهاد التتار، مثل تصقيع الأملاك وتقويمها وأخذ زكاتها، وتحصيل ثلث المواريث الأهلية، بالإضافة إلى الغرامة عن كل فرد ديناراً، فكان جملة ما أبطله بيبرس نحو ستمائة ألف ديناراً، وكتب بإبطالها مسامحة و"توقيعاً قرئ على المنابر، فطابت قلوب الناس"، وزادوا في الزينة التي كانوا قد أعدوها لاستقبال عودة السلطان والعسكر المنتصرين.[٣٧]

ومما يلفت النظر هنا أن منابر المساجد كانت هي الوسيلة الرسمية لإعلام الناس بالمراسيم والأوامر السلطانية في الدولة، إذ أنها ترتبط باجتماع الناس بطريقة منتظمة ومشروعة، ومن ناحية أخرى حين تقرأ عليهم قرارات الدولة بالمساجد تكتسب صفة العمومية والشرعية، وتكون لها مصداقية عند سامعيها.

ومن الطبيعي لشخص له مهارات بيبرس وقدراته، التي جعلته قائداً عسكرياً مغواراً، وبطلاً لا يشق له غبار، أن يحسن بعقلية منظمة تدبير الدولة، ويؤسس لإدارتها قواعداً عبقرية، استمرت بفضلها الدولة لأكثر من قرنين من الزمان، قائمة كمملكة مترامية الأطراف، تخطب ودها الدول المعاصرة، وترهب أعدائها المتربصين بها، على الرغم من الوجود الصليبي في الجوار، والخطر التتري ماثلاً يهدد بلاد الشام لفترة طويلة.

---

[٣٥] أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢٠٨، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١٤، ص ٦٨٩، المقريزي، السلوك، ج٢/١، ص ٤٣٧.

[٣٦] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق الباز العريني، مراجعة عبد العزيز الأهواني، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج ٣٠، ص ١٥، ابن أيبك، كنز الدرر، ج ٨، ص ٦٣، المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٤٣٧.

[٣٧] النوري، نفسه، ج ٣٠، ص ١٥، ابن أيبك، المصدر السابق، ص ٦٣، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٤، ص ٦٨٩، المقريزي، نفسه، ص ٤٣٧، ٤٣٨.

بدأ الظاهر بيبرس حكمه والتمكين لملكه، بالقضاء على محاولات التمرد ضده، من قبل بعض أمراء الشام، مثل سنجر الحلبي الذي رفض الاعتراف بسلطنة بيبرس، وأعلن نفسه ملكاً على دمشق، فاستخدم بيبرس بدهائه سلاح المال، أغرى به أنصار ذلك الأمير، فانفضوا من حوله، وتم القضاء على حركته في عام ٦٥٩هـ / ١٩٦١م، وأرسل إلى القاهرة مكبلاً بالأصفاد.[٣٨] وأيضاً فشل أمير آخر في الاستقلال بحلب، هذا بالإضافة إلى عصيان بعض الأمراء من غير البحرية داخل مصر، ولكن السلطان بيبرس وأد تلك المؤامرات كلها في مهدها، وعفى عن هؤلاء جميعاً وتصرف معهم بحكمة بالغة.[٣٩]

وإذا كان تصرف بيبرس قد اتسم بالعفو والتسامح مع هؤلاء الأمراء المتمردين، فإنه اختلف تماماً مع ثورة جماعة شخص شيعي يدعى الكوراني، كان يظهر الزهد ويقطن قبة بأعلى الجبل، وجعل لنفسه أتباعاً، ثم أعلنوا العنف المسلح، حيث انطلقوا في شوارع القاهرة يصيحون : "يا آل علي"، ونهبوا حوانيت السيوفيين، كما استولوا على عدد من الخيول، فتصدى لهم السلطان بكل حزم، وتم صلبهم خارج باب زويلة.[٤٠]

وبعد أن مكن الظاهر بيبرس لملكه سياسياً، التفت إلى تنظيم ادارة البلاد داخلياً، ففي صبيحة جلوسه على دست السلطنة، أقر النائب وأتابك العساكر، وكبار رجال الدولة، الوزير والدوادار والاستادار والحاجب وغيرهم، كما عيين نواباً بالأقاليم الشامية والحجازية التابعة للدولة.[٤١]

وقد اهتم كثيراً بتنظيم الجيش المملوكي القادر على خوض غمار المعارك وسحق الأعداء، وأعاد بناء الأسطول، الذي لا تقل مهامه البحرية ضراوة عن المعارك القتالية التي يقودها الجيش على الأرض ضد الأعداء، ولهذا حرص بيبرس على توزيع الاقطاعات والرزق على الأمراء والجند.[٤٢]

---

[٣٨] محيي الدين بن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، رفعه عبد الرحمن النجدي، الطبعة الأولى، الرياض، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ص ٩٤، ٩٥، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٨٥، ابن أيبك، نفسه، ص ٦٣، ٦٤.

[٣٩] ابن أيبك، كنز الدرر، ج ٨، ص ٦٩، المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٧١، ٤٧٦.

[٤٠] كان ذلك في بداية عهد السلطان بيبرس، عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م. انظر المقريزي، نفسه، ص ٤٤٠.

[٤١] ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٣٢ – ٢٣٩، المقريزي، نفسه، ص ٤٣٨، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٠٨.

[٤٢] ابن شداد، نفسه، ص ٢٣٩ وما بعدها.

كما اهتم بتمهيد الطرق داخل المملكة وتأمينها، وإقامة الجسور على الأنهار، وحفر القنوات في مناطق عديدة لتحسين الزراعة في أرض مصر، وأكثر الأمور التي أتت بالفائدة الكبيرة على الدولة وإحكام السيطرة عليها، كانت خدمة البريد التي ربطت بين مصر وسائر المملكة في مدة وجيزة لا تزيد عن أربعة أيام، بالخيل السريع والمحطات الداعمة على الطريق، بحيث كان السلطان ينتقل بين القاهرة ودمشق، فيلعب الكرة مع الأمراء هنا وهناك خلال نفس الأسبوع.[٤٣]

وشملت اصلاحات بيبرس الداخلية كل أمور الحكم، وخاصة الاهتمام بالعدل، إذ جعل للمذاهب الأربعة قضاة القضاة لكل مذهب منها، بعد أن كان للشافعي فقط رئاسة القضاة وتعيين النواب الشافعية في الأعمال بالبلاد والأقاليم بأنحاء المملكة، فأضحى لسائرهم ذات الميزة،[٤٤] كما أنه أسس دار العدل، وكان أول من جلس بنفسه في مقام قاضي المظالم[٤٥]، ليفصل فيما يعجز القاضي الشرعي عنه، لعلو قدر الخصم أو لعوار في عدالة الحكم.[٤٦]

ولكن أعظم ما تحقق في عهد بيبرس وأكسب الدولة قوة شرعية، وأثبت لملكه ومن جاء بعده، أحقية رسمية في قيادة العالم الإسلامي لقرنين من الزمان قادمين، كان إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة عام ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م، بعد زوالها من بغداد على يد

---

[٤٣] لفت ذلك النظام المحكم نظر المستشرقين، حتى ان لين بول قال عنه : بيبرس وضع أسس لدولة منظمة ثابتة الأركان، بصورة جعلت أي عجز أو شقاق بين خلفائه غير قادر على تمزيق ذلك النسيج الذي قام هو بحياكته. انظر تاريخ مصر، ص ٤٩٥.

[٤٤] انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٣٥ – ٢٣٨.

[٤٥] قاضي المظالم لابد "أن يكون جليل القدر نافذ الأمر، عظيم الهيبة.. كثير الورع، لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة وثبت القضاة". هذا تعريف قاضي المظالم وشروطه عند الماوردي، انظر الأحكام السلطانية، ص ٧٧ – ٨٨.

[٤٦] عن إصلاحات بيبرس القضائية، انظر ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٨٨، ابن كثير، المصدر السابق، ص ٣٠٩، الدميري، قضاة مصر، تحقيق ودراسة عبد الرازق عيسى ويوسف مصطفى المحمودي، العربي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٢٨، علي حسن، المرجع السابق، ص ٥٠، وأيضاً مقالة يعقوب ليف، العلاقة التكافلية بين العلماء وسلاطين المماليك، بمجلة الدراسات المملوكية، لسنة ٢٠٠٩م، وكذلك مقالة يوسف رابوبورت، الحكم والشريعة تحت سلاطين المماليك، بالمجلة الصادرة عام ٢٠١٢م، تصدر المجلة عن مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة شيكاغو الأمركية، انظر الموقع بالشبكة الدولية. : (MEDOC)
Yaacov Lev (Bar Ilan University) : "Symbiotic Relations : Ulama and the Mamluk Sultans", Mamluk Studies Review, XIII (1), 2009. P.P. 14 – 16.
Yossef Rapoport, (Queen Mary University of London), : "Royal Justice and Religious Law : Siyasah and Shariah under the Mamluk", Mam. St. Rev., XVI, 2012, (MEDOC), P.P. 71 – 102.

التتار سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م؛ إذ استقبل وريثاً من البيت العباسي وجعله خليفة، وتم بعد مبايعته منح الظاهر بيبرس تقليداً من هذا الخليفة العباسي، يفوض إليه بموجبه حكم مصر والشام والحجاز وكل ما سوف يضاف إلى الدولة مستقبلاً؛[٤٧] فكان ذلك سياجاً أحاط دولة المماليك بإطار من التبجيل والقدسية المشروعة بين المسلمين، ولاسيما وإنها الدولة التي تضم بين جنباتها الأراضي الحجازية بما فيها الكعبة المشرفة والمسجد النبوي، وقد جعل هذا بيبرس يلقب نفسه "بخادم الحرمين الشريفين"، ضمن ما حاز من ألقاب.

كما أسس الظاهر بيبرس نظام ولاية العهد، الذي يحصر الملك في أسرة السلطان القائم على العرش، وهذا بخلاف العرف السائد حتى وقته، والذي يجعل الحكم لمن تغلب بالشوكة، أو غلب بقوة أتباعه ومماليكه؛ فقد أخذ لابنه محمد السعيد بركة خان عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م، ولاية العهد[٤٨] بأن حلف الأمراء وأهل الدولة في سائر المملكة، على أنه يلي أمر السلطنة بعده، وجدد له العهد بالولاية مرة أخرى سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م، وكلفه بمهام كثيرة، كادت أن تجعله شريكاً لأبيه في الملك، بمسئوليات تقارب اختصاصات السلطان الأساسية، ولكنه في النهاية لم يستقل بالعمل حقيقتاً دونه، إنما كانت كلها وظائف شرفية، موكلة إلى بركة خان شكلياً، وكان السلطان بيبرس يباشر كل شئون الدولة بنفسه منفرداً بلا منازع.

وقد اتسمت سياسته الداخلية تجاه الرعية بالعدل والعفّة والكرم مع عامة الناس، حتى النصارى منهم.[٤٩] كما اهتم بالعمائر الدينية، فأنشاء الجامع المعروف باسمه سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٦م) بالحسينية، والمدرسة ببين القصرين، والتي أنشأها قبل ذلك وقرر

---

[٤٧] نص التفويض ذكره ابن عبد الظاهر في كتابه، المصدر السابق، ص ٦٨ وما بعدها، والبيعة للخليفة العباسي الأول ص ٩٩، والثاني ص ١٤١ وما بعدها، بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص ٤٧ – ٤٩، النويري، المصدر نفسه، ص ٣٠ -٣٥، ابن أيبك، نفسه، ص ٩٣، ٩٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة نفسه، ص ١٠٩، ١١٠، علي حسن، المرجع نفسه، ص ٤٧، مقال يعقوب ليف، بمجلة الدراسات التابعة لمركز وثائق جامعة شيكاغو، Yacoov Lef, Ibid. P.P. 11 – 13.

[٤٨] ابن عبد الظاهر، نفسه، ص ٢٠٣، بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص ٥٢، زبدة الفكرة، ص ١٠٧، ابن أيبك، نفسه، ص ١١٥ وما بعدها، ابن كثير، نفسه، ص ٣٠٩، المقريزي، السلوك، ج١/٢، ص ٥١٦، علي حسن، نفسه، ص ٤٧ – ٤٩، وقد ذكر ابن أيبك تاريخ ولاية العهد عام ٦٦٣هـ وليس ٦٦٢هـ.

[٤٩] أشاد بذلك لين بول في كتابه، نقلاً عن أحد المعاصرين وهو وليم الطرابلسي، انظر تاريخ مصر، ص ٤٩٥.

بها المدرسين والقومة، وجعل عليها الأوقاف الجليلة،[٥٠] وحضر افتتاحها عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م. ويهمنا أن نثبت أيضاً أن في عهده قد تم إعادة خطبة الجمعة بالجامع الأزهر الشريف، وكانت قد انقطعت عنه منذ وقت الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦ – ٤١١هـ / ٩٩٦ – ١٠٢٠م)، فعاد لإقامة الصلوات الخمس به والجمع مرة أخرى، وقد رمم شعثه وجدد عام ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م.[٥١]

واللافت للنظر أن الظاهر بيبرس في سبيل تأكيد البعد الديني للدولة، واتمام السيطرة الكاملة وجدانياً على الشعب، كان يعبأ كثيراً بأهل التصوف، ويعير علماء الدين والفقهاء اهتماماً بالغاً، ويجلّهم ويعطي لهم التقدير والاحترام الوافر، إذ أنهم كانوا يمثلون قلب الأمة والقدوة للرعية، المؤثرين فيهم فكرياً ووجدانياً، وتبجيله لسلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام يتصدر متون الكتب المعنية بسيرة هذا الشيخ الجليل؛ كما ذكرت المصادر أن بيبرس كان دائم الزيارة للشيخين القباري والشاطبي،[٥٢] عندما يكون بالإسكندرية، غير علاقته الشخصية الوثيقة بالشيخ خضر الذي حباه كثيراً وكان له من المقربين، ووهبه عدة زوايا، أشهرها التي أقامها له بميدان قراقوش بالحسينية.[٥٣]

وكان بيبرس يذهب إلى ثغر الإسكندرية مراراً، يتفقد الأمور والأعمال بها، ويلعب الكرة في ميدانها مثلما يفعل في القاهرة ودمشق، وقد ألغى المغارم التي كانت قد فرضت عليها ضمن ما فرض، قبل الذهاب إلى مواجهة التتار، وبسط العدل ووزع

---

[٥٠] عن جامع الظاهر بيبرس، انظر المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٩٩ – ٣٠٣، والمدرسة الظاهرية، ص ٣٧٨، ٣٧٩، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٩١

[٥١] كان الجامع الأزهر هو أول بيت لله وضع بمدينة القاهرة، التى بناها جوهر الصقلي القائد الفاطمي عام ٣٦٠هـ / ٩٧١م، وأقيمت به أول جمعة في شهر رمضان سنة ٣٦١هـ (٩٧٢م)، وقد حددت له أوقافاً كثيرة أيام الفاطميين. انظر ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٧٧، بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٦٠، ابن أيبك، كنز الدرر، نفسه، ص ١٢١، المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٧٣ – ٢٧٧.

[٥٢] القباري هو محمد بن منصور أبو القاسم، وكان معروفاً بالزهد وله مريدين وأتباع، وتوفي عام ٦٦٢هـ، والشاطبي هو أبو عبد الله محمد بن سليمان، وهو من المتصوفة ذائعي الصيت، المعروفين بالورع والمشهورين بالكرامات، وقد عاش بالإسكندرية وتوفي بها عام ٦٧٢هـ. انظر ابن شداد، نفسه، ص ٢٧١، النويري، نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٨٨، ١٠٧، المقريزي، السلوك، نفسه، ص ٤٩٩، ٦١٤، ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، نفسه، ص ٢١٧، ٢١٨، وقد جاء اسم الشاطبي عند أبي المحاسن : محيي الدين أبو بكر محمد بن سراقة، وانه توفي سنة ٦٦٢هـ

[٥٣] ابن شداد، نفسه، ص ٢٧٢، ابن أيبك، نفسه، ص ١٢٣، بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٥٩، يقول المنصوري أن السلطان قد بنى جامعه أيضاً بهذا الميدان بجوار زاوية الشيخ خضر.

الصدقات والنفقة على المحتاجين، وأمر "بتطهير الثغر من الخواطي الفرنجيات"،[٥٤] في إطار اهتمامه بالأخلاقيات العامة لتسود بالدولة.

ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى موقف للظاهر بيبرس ينم عن تواضع جم وعدل يحتذى مع الرعية، واحترام للقضاء والشرع، ذلك أنه في عام ٦٥٨هـ (١٢٦٠م)، تساوى مع خصم له نازعه في ملكية بئر، أمام القاضي تاج الدين عبد الوهاب[٥٥] بن بنت الأعز، وكان هذا الشخص أحد الأجناد ويدعى جمال الدين محمود، قد استكمل حفر البئر التي شرع بيبرس في حفرها، حينما كان أميراً، ليستفيد منها بعض الفقراء المقيمين بالمنطقة، وعندما توجه مع البحرية الفارين إلى الشام بعد مقتل أقطاي، جاء هذا الجندي وأتم عمارة تلك البئر، وانزعج الصوفية المتواجدون ورفضوا التسليم له بملكية البئر، وكتب بالأمر إشارة إلى دار العدل، وعلم بيبرس به بعدما تسلطن، فقرر أن يحضر ويجلس أمام القاضي ويتساوى مع خصمه في محاكمة عادلة، فحضر قاضي القضاة ابن بنت الأعز، ومعه قضاة المذاهب جميعاً، وبعد أن فصل السلطان في القضايا الأخرى المرفوعة إليه بدار العدل، تقدم وحل سيفه، ومثل أمام القاضي "وتساوى مع خصمه بين يدي قاضي القضاة.. بن بنت الأعز، ولما وقف السلطان مع غريمه، أمرهما القاضي بالجلوس معاً، وشرح السلطان الحال، وتكلم الخصم، وحصل التجاذب في المحاكمة. فثبت الحق للسلطان، وحكم الأئمة بأن البئر له، وأن بعض البناء والعدة للخصم، فالتزم له السلطان بقيمة ما ثبت له".[٥٦] ووقف البئر لله تعالى، وعين لها أموالاً تقوم بكلفها وصيانتها، وخلع على القاضي والخصم، وجميع من كان حاضراً في مجلس الحكم. "وتسامع الناس بذلك، فصار الأمير ينصف المأمور.. وخاف كل أحد من العدوان، وصار التناصف ظاهر الإعلان"، فصار تصرفه مثلاً للناس يحتذى، وسياسة حسنة وقدوة تتبع، "ومكرمة جميلة يجب على الملوك التخلق بمثلها والاقتداء بفعلها..".[٥٧]

ونرى موقفاً آخر يشهد له بحسن التدبير والرحمة بالفقراء والمحتاجين من الرعية، وذلك أنه في شهر صفر من عام ٦٦٢هـ / ديسمبر ١٢٦٣م، عندما غليت الأسعار

---

[٥٤] النويري، المصدر السابق، ص ٨٨، المقريزي، السلوك، ج١/٢، ص ٤٩٩.

[٥٥] هو عبد الوهاب بن بدر العلامي، قاضي القضاة الشافعي (٦١٤ – ٦٦٥هـ)، كان إماماً فاضلاً، وتقدم عند الظاهر لنزاهته المفرطة، وتثبته في الأحكام، وولي وظائف جليلة، انظر ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٩٣، ج ٧، ص ٣٨٠ – ٣٨٢، ترجمة رقم ١٤٩٨.

[٥٦] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٨٠ – ٨٤، بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص ١٤، ١٥

[٥٧] انظر بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص ١٥

في البلاد، وعم البلاء على العباد، فرسم بيبرس أولاً بالتسعير طلباً للرفق بالناس والتوفير، ولكن لم يستقيم الأمر، فأمر بجمع الفقراء والمساكين تحت القلعة، وجلس بدار العدل، ثم أبطل التسعير وعمد إلى توفير الغلال من الأهراء السلطانية،[٥٨] وبيع خمسمائة أردب يومياً منها على الضعفاء والأرامل، كما أمر بإحصاء عدد الفقراء والمحتاجين بالقاهرة ومصر وضواحيها، وتم توزيع هؤلاء على الأمراء كل حسب سعته، وعلى الأكابر والتجار والأثرياء حسب مقدرة كل واحد منهم، وأخذ هو الوفاً منهم وكذلك ولده، "ورسم أن كل من يخصه فقير يعطيه مؤنته مدة ثلاثة شهور".[٥٩]

وهكذا مكن بيبرس لدولته باتباع سياسة داخلية حكيمة، تجعل الشعور الديني هو أساس العلاقة بينه وبين الناس، حتى يتفرغ لمواجهة الأخطار الخارجية، وينطلق لاسترداد الأرض المحتلة من الصليبيين حصناً بعد آخر، كما كان يرهب رسل التتر باستعراض العسكر في الميدان بالقاهرة ويبهرهم من كثرة الأعداد والعتاد، فإذا سألوا : هل هي عساكر مصر والشام معاً ؟ فيعرفوهم بأن هؤلاء هم "عسكر مصر فقط، غير من في الثغور مثل اسكندرية ودمياط ورشيد.. والمجردين (للقتال خارج الدولة)، والذين سافروا في إقطاعاتهم، فكثر تعجبهم من ذلك..".[٦٠]

وأما بالنسبة لجهوده العظيمة لاسترداد الأراضي المسلوبة،[٦١] فقد ذخرت المصادر بأخبار معاركه البطولية، وكيف كان يقود عسكره بنفسه، ويعمل بيده في حفر الخنادق وهدم حصون العدو، وتم تحرير الكثير من الأراضي الإسلامية، وخلاصها من براثن المعتدين الصليبيين على يديه، كما دفع التتار أكثر من مرة عن بلاد الشام، وهزمهم وكبدهم خسائر كبيرة.[٦٢]

---

[٥٨] الأهراء السلطانية : هي أماكن لتخزين الغلال الخاصة بالسلطان ولا تفتح إلا للضرورة وهي بمثابة شونة الغلال بالمصطلح الحديث. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٣، ابن مماتي، قوانين الدواوين، حققه عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص ٣٥٠، ابن شاهين، زبدة، ص ١٢٢، ١٢٣

[٥٩] بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص ٢٦، ٢٧، ابن عبد الظاهر، نفسه، ص ١٨٨، ١٨٩، المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٥٠٧

[٦٠] المقريزي، المصدر السابق، ص ٥١٩

[٦١] عن خوضه المعارك الكبيرة وقيادته الجيوش المنتصرة بنفسه، انظر ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٥١ ــ ١٥٨، ١٦٢ - ١٦٦

[٦٢] ذكر ابن شداد في تأريخه لسيرة الملك الظاهر، أنه حارب المغول في معارك كثيرة خاضها ما بين السنوات ٦٧٠ ــ ٦٧٥هـ، عن ذلك انظر رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، تاريخ المغول الإيلخانيون، ترجمة محمد صادق نشأت وفؤاد الصياد، مراجعة يحيى الخشاب، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٠م،مجلد ٢، ج ٢، ص ٥٨ ــ ٦٢.

ولفت أنظار المستشرقين[٦٣] اهتمامه برعاية مدينة بيت المقدس على وجه الخصوص، وزيارته لقبر خليل الرحمن ابراهيم (عليه السلام) بحبرون، أو مدينة الخليل،[٦٤] جنوبي المدينة "المقدسة"، وقيامه بتوزيع الصدقات على المساكين هناك.[٦٥]

كان بيبرس ملكاً شجاعاً، يقتحم الخطر ببسالة، ويعطي القدوة لجنده في الاقدام على خوض المعارك مهما بلغت شراستها، في سبيل تطهير الأرض من نير العدو، ولكن لم تكن خطواته متسرعة غير محسوبة، أو بدون تفكير وتخطيط مسبق، بل كان داهية يرسم خطواته بعبقرية وذكاء منقطع النظير، حتى إنه قبل أن يبدأ عملياته العسكرية، مهد لنفسه بإبرام المعاهدات والاتفاقيات مع القوى المحيطة بالأرض التي يسعى لتحريرها، فعقد معاهدات مع الامبراطورية البيزنطية ضد الإمارات الصليبية وبقاياهم بالشام، وكان صليبيو الغرب قد فقدوا صداقة بيزنطة، زعيمة مسيحيي الشرق، بسبب الحملة الصليبية الرابعة التي وجهها الغرب اللاتيني الصليبي إلى القسطنطينية عام ١٢٠٤م؛[٦٦] وأسفرت عن إقامة دولة احتلال لاتيني غربي دامت لنحو خمسين عاماً، وكان من نتائجه تباغض حدث بين الأسرة البيزنطية الحاكمة والتي تمكنت من استرجاع بلادها، وبين القوى اللاتينية الصليبية، التي كانت تعربد باسم حماة الصليب في الشرق المسيحي، وصب ذلك في صالح المسلمين، فتحالف الظاهر بيبرس مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجوس الثامن سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م، ضد الصليبيين اللاتين.

---

[٦٣] لين بول، المرجع السابق، ص ٥٠١

[٦٤] تقع مدينة الخليل، وهي التي كانت تعرف بحبرون قديماً، جنوبي مدينة القدس بنحو ٣٥ كم، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٢

[٦٥] لين بول، نفسه، ص ٥٠١

[٦٦] كتبت عن هذه الحملة مصادر كثيرة منها : Villehardouin, The conquest of Constantinople, in : Joinville and Villehardoin, Chronicles of the Crusades, (translated by M. R. B. Penguin Books, 1975) P.P. 29 -160, Michel Balard : Croisades et Orient Latin, XIe – XIVe Siècle. Armand Colin, Paris, 2001. وقد ترجمه إلى العربية بشير السباعي، تحت اسم : الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، بالتعاون مع المركز الفرنسي للثقافة، التابع لسفارة فرنسا، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٢٠٢ – ٢١٩، عن تلك الحملة أيضاً انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، مكتبة المتنبي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ج ٢، ص ٨٤٧ – ٨٥٦، قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٦.

وقد تم هذا التقارب والتحالف على خلفية دينية كذلك، حيث أرسل بيبرس إلى بيزنطة وفداً مدعماً بعدد من الأساقفة ورجال الدين المسيحي، ذوي المذهب الملكاني، وهو مذهب الروم الأرثوذكس، الذي كان يدين به الروم البيزنطيون أيضاً كسائر الشرق المسيحي[٦٧]، ورأس الوفد الأمير المسلم فارس الدين آقوش، فأكرمهم الامبراطور ميخائيل، وسمح بتجديد مسجد القسطنطينية، لكي يصلي فيه التجار المسلمون وغيرهم من المسلمين المقيمين أو القادمين إلى العاصمة البيزنطية.[٦٨]

ومن ناحية أخرى حاول بيبرس أن يحيّد بعض القوى الأوربية، حتى لا تنحاز إلى جانب الصليبيين اللاتين في الشرق، والذي كان ينوي طردهم من بلاد الشام، فعقد معاهدات مع الملك الألماني مانفريد، صاحب الامبراطورية الرومانية المقدسة، وكذلك مع ملك قشتالة الإسباني وغيرهما،[٦٩] كما صارت له علاقات ود وصداقة مع مغول القبيلة الذهبية،[٧٠] الذين اعتنقوا الإسلام، وتبادل معهم السفارات والرسل بالهداية والمكاتبات، بين عامي ٦٥٩ – ٦٦١هـ/ ١٢٦١ – ١٢٦٣م، واستعان بهم للوقوف ضد المغول الآخرين الوثنيين.

وبذلك تمكن بيبرس من القضاء على الامارات الصليبية، وتصفية حصونهم على الأراضي الإسلامية جميعها؛ فجرد العسكر في الحملة تلو الأخرى، وهاجم قيسارية وأرسوف واستردهما، وداهم قلعة صفد واستولى عليها، وأعدم فرسان الداوية،[٧١]

---

[٦٧] من المعلوم أن المسيحيين ينقسمون في مصر إلى طائفة اليعاقبة وهم الأقباط الأرثوذكس، وطائفة الملكانيين وهم الروم الأرثوذكس، وكان ذلك مذهباً للدولة البيزنطية حينما كانت مصر تابعة لها قبل الفتح العربي.انظر المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٥٠٠، ٥٠١.

[٦٨] انظر ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٢٩، العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ٣٣٢، وكان بطرق الملكانيين بمصر وقتئذ هو "الرشيد الكحال".

[٦٩] المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٤٧٤ - ٤٨٠، محمد محمود النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأرجون بسلطنة المماليك ٦٥٨ – ٧٤١هـ/ ١٢٦٠ – ١٣٤١م، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٨٠، ٨١.

[٧٠] ابن عبد الظاهر، نفسه، ص ١٣٩، ١٤٠، ٣٣٥، ابن أيبك، الدرة الذكية، ج ٨، ص ٩٩، ١٦٧، المقريزي، نفسه، ص ٤٧٤، ٤٧٥.

[٧١] يرجع تاريخ تأسيس هيئة فرسان الداوية إلى عام ١١١٨م، عندما جعل فارس فرنسي يدعى هوجو دو باينز، جماعة من الأتباع يشكلون منظمة عسكرية، مقرها في هيكل سليمان ببيت المقدس، وأطلق عليهم اسم "فرسان المعبد"، "Templars"وهم الذين عرفوا بالداوية، ويقول دكتور عاشور أن الآراء قد اختلفت في أصل هذه التسمية باللغة العربية، فيقول البعض أنها ترجع إلى اسم النبي داود، حيث أقام هؤلاء في المعبد المنسوب إليه، وكان فرسان المعبد هؤلاء يتبعون بابا روما مباشرتاً مثل الإسبتاريين، أو فرسان الهسبتاليين : The Knights Hospitallers عن هاتين الهيئتين ونشأتهما ودورهما انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١، ص ٤٤٩ – ٤٥١.

الذين كانوا قد ارتكبوا مذابح فظيعة في حق المسلمين.[٧٢] ولكن أكبر نصر حققه بيبرس كان استعادته أنطاكيا، التي تم خلاصها من براثن الصليبيين عام ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م، وهي تعد "مدينتهم العظمى، ومحلهم الأسمى."[٧٣] ولم يترك الأمر مع الإمارات الصليبية ببلاد الشام، حتى حرر واسترد جميع الحصون والقلاع، وعقد مع بوهيموند السادس أمير طرابلس، اتفاق هدنة سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م، لمدة عشر سنوات، بشروط فرضها بيبرس المنتصر على هذا الأمير الصليبي المهزوم.[٧٤]

أما فيما يتعلق بالخطر المغولي، الذي تمثل في مغول فارس، والذين حكمهم هولاكو ومن بعده ابنه ابغا، فقد عقد بيبرس لمجابهته أواصر الود والصداقة، والمصاهرة أيضاً، بينه وبين زعيم القبيلة الذهبية، الملك بركة خان، كما سبق القول، وراح يغريه بقتال هولاكو، عدوهما المشترك؛ ثم حاول ابنه ابغا التحالف مع البابا كليمنت الرابع سنة ١٢٦٧م، ضد المسلمين، وأيضاً مفاوضة ملك أرجون لكسبه إلى جانبه، إلا أنه فشل وذهبت كل مساعيه أدراج الرياح، وظل حلف بيبرس مع بركة خان والإمبراطور مانفريد الألماني هو الأنجح، وبذلك تفرغ الظاهر بيبرس لحربه ضد الصليبيين وهو آمن الظهر بحليف قوي.[٧٥]

---

[٧٢] ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٦٢ – ٢٦٨، بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٥٣ – ٥٨، لين بول، نفسه، ص ٥٠١

[٧٣] بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص ٦٢ – ٦٤، ابن عبد الظاهر، نفسه، ص ٣٠٧ وما بعدها، المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٥٦٧، ٥٦٨.

[٧٤] ابن عبد الظاهر، نفسه، ص ١٥١ – ١٥٨، ١٦٢ – ١٦٦، ٣٨٣، النويري، نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٣٣١، ٣٣٢، المقريزي، المصدر السابق، ص ٥٩٢، ٥٩٣، : Runciman (S) "The Crusader States 1243 – 1291", in Setton (ed), A History of the Crusades, Vol. II, P.P. 580 – 582. وعن حروب بيبرس ضد الصليبيين وانتصاراته، انظر عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٠٣٤ – ١٠٤٢، جيمس واترسون، فرسان الإسلام وحروب المماليك، ترجمة يعقوب عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١١م، ص ١٩٧ – ١٩٩.

[٧٥] عن علاقة مغول القبيلة الذهبية بالمماليك، وحربها ضد هولاكو، انظر رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، مجلد ٢، ج ١، ص ٣٣٢ – ٣٤٠، البناكتي،(أبو سليمان)، روضة أولي الألباب في معرفة التواريخ والأنساب، المشهور بتاريخ البناكتي، ترجمه عن الفارسية محمود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، العدد ١١٥٦، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٤٦٤، ابن عبد الظاهر، نفسه، ص ١٧٠، ١٧١، ٣٣٥ وما بعدها، ابن واصل، نفسه، ص ٣٢٩ – ٣٤٣، ٣٤٨ - ٣٥٠، ٣٥٩، النويري، نفسه، ص ١٠٥، ١٠٦، ابن أيبك، نفسه، ص ٩٧ – ١٠١، عاشور، المرجع السابق، ص ١٠٣٤، محمد النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأرجون، ص ٨١، صبحي عبد المنعم، المغول والمماليك، السياسة والصراع، المكتبة التاريخية، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٢٣ – ٢٥.

ورغم الجهد الكبير الذي بذله السلطان بيبرس، وعنف المعارك التي خاضها، وضيق المكان وعدم اتساع الزمان، إلا أن سلوك بيبرس الانسان كان ملفتاً للنظر، مثيراً للإعجاب، فقد اهتم بتجهيز خيام الاستشفاء بميادين القتال، لرعاية الجرحى والمرضى من جنده أو أهل البلاد المضرورين بالمعارك الدائرة من حولهم، وخصص لهم الأطباء المهرة، والجرائحية المتميزين. هذا مع إحكام قبضته على زمام الأمور الداخلية، ومراقبة الوضع الأمني بردع الفاسدين، وعقاب المذنبين المتورطين بأعمال سلب أو نهب، أو إضرار بأموال الناس وأرواحهم، من أعضاء حكومته وجهازه الإداري، كما ضرب بيد من حديد على أي جندي من صفوف الجيش يرتكب خطأً أو سقطةً أخلاقيةً، كمعاقرة الخمر أو غيره داخل المعسكرات، وقد راعى أن ينفذ ذلك بدقة طبقاً لأوامره في أنحاء المملكة.[٧٦]

وقضى الظاهر بيبرس حياته كلها في فتوحات وانتصارات، أبلى فيها بلاءً حسناً في جهاده ومعاركه المنصورة ضد الصليبيين والتتار، حتى وافته المنية في دمشق، بعد عودته من فتح قيسارية، فمرض ليلة السبت الخامس عشر من المحرم عام ٦٧٦هـ، وفاضت روحه إلى بارئها يوم الخميس سابع عشرين الشهر (أول يوليو ١٢٧٧م)، وأخفى الأمراء موته، حتى سار الجند إلى القاهرة، وأعلموا ولده بركة خان الذي ذهب إلى دمشق وابتاع له منزلاً، وبناه تربة ودفنه هناك بقبة أعلاه.[٧٧]

نقلت المصادر ما سطره الشيخ قطب الدين اليونيني[٧٨] في تاريخه، حيث ذكر أن سبب وفاة السلطان بيبرس، ولعه بالنجوم والطالع، فأخبر أن أحد الملوك الكبار سوف يقضي نحبه بدمشق في عامه هذا، فأراد أن يتفادى الأمر، فدس السم خفية للملك القاهر بهاء الدين، وفي رواية أخرى : أنه حقد على القاهر ذكر الناس له بالشجاعة والبلاء الحسن في المعركة، التي خاضاها معاً وعادا منها لتوهما مكللان بالنصر الكبير على الروم، وكان الظاهر يأبى إلا أن يتصف وحده بالبطولة، وأن تعزى الانتصارات كلها لبسالته هو وحسن قيادته، وأيما كان السبب، فقد أقدم بيبرس على

---

[٧٦] لين بول، المرجع نفسه، ص ٥٠١

[٧٧] ذكر ابن شداد أنه هو الذي أشار بدار العقيقي، لتكون مدفناً للسلطان، فتقدم بركة خان له بإتمام شرائها من ملاكها، فحصّل حصصها المتفرقة، ودفع للملاك فيها ثمانية وأربعين ألف درهماً نقرة. انظر تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٢٢ – ٢٢٥، ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٤٧٢ – ٤٧٥، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٥٦، تاريخ ابن الفرات، مجلد ٧، ص ٨٧ – ٨٩، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٧٥، ١٧٦.

[٧٨] انظر ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ٢٤٥ – ٢٤٧، ابن عبد الظاهر، نفسه، ص ٤٧٢ – ٤٧٥، بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص ٦١ – ٦٣، ابن أيبك، كنز الدرر، ج ٨، ص ٢٠٨، ٢٠٩، ابن كثير، نفس المصدر، ص ١٤ – ١٦، ابن الفرات، نفسه، ص ٨٧ – ٨٩، المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص٦٣٥، ٦٣٦.

ارتكاب هذا الفعل الشائن، وشرب الملك القاهر بهاء الدين الكأس المسمومة، ومات من فوره في ليلته هذه، وأخطأ الساقي فملأ ذات الكأس للظاهر، فتجرع نفس ما اقترفت يداه، ومات متأثراً بما في الكأس من باقي السم، واستمر يعاني ألاماً مبرحةً لمدة ثلاثة عشر يوماً، حتى انتهت حياته الحافلة بالنصر والبطولة بهذه النهاية المأساوية الأليمة.[٧٩]

وكانت وفاته، كما علمنا، في يوم الخميس ٢٧ من المحرم عام ٦٧٦هـ / أول يوليو ١٢٧٧م، وقد تجاوز الخمسين من العمر، وبلغت مدة حكمه سبع عشرة سنة وشهران واثنا عشر يوماً.

ولم يكن الظاهر بيبرس ملكاً عالي الهمة كبير القدر عظيم المهابة، فقط بالنسبة لمعاصريه، وانما شكرته الأجيال التي أتت بعده، وظلت سيرته تتداول بالفخار حتى يومنا هذا، إذ كان "مقداماً خفيف الركاب طول أيامه، يسير على الهجن وخيول البريد لكشف القلاع والنظر في الممالك.. يلعب الكرة في الأسبوع يومين بمصر ويوماً بدمشق.. – يكون – يوماً بمصر ويوماً بالحجاز والشام.. ويوماً في قرى حلب.."[٨٠]

فقد كان ملكاً "غازياً مجاهداً، مؤيداً عظيم الهيبة، خليقاً بالملك.. له أيام بيض في الإسلام، وفتوحات مشهورة، ومواقف مشهودة،" قالت المصادر أنه فتح أربعين حصناً كانت للفرنجة، اكتسبها منهم عنوةً.[٨١]

وكان الأمراء يهابونه ويخافونه مخافة شديدة، إذ كان يتابع أحوال أمرائه وكبار دولته، فلم يخفى عنه من أخبارهم شيء. و"كان يقرب أرباب الكمالات من كل فن وعلم، ويميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً، ويقول : سماع التاريخ أعظم من التجارب."[٨٢]

وقد اهتم بتقوية الجيش وحسن تدريبه، فجعل عدة عسكره اثني عشر ألفاً، ثلثها بمصر والثلثين بدمشق وحلب، فإذا غزا أخرج معه قوة للزحف قوامها أربعة آلاف جندي، فإن احتاج استدعى أربعة مثلهم، وتلاهم بأربعة غيرهم.[٨٣] وقد استخدم قوته الضاربة في فتوحاته الناجحة، والتي أوسع بها حدود الدولة، فصارت تمتد من القاهرة

---

[٧٩] انظر رواية اليونيني وقد صادق عليها ابن عبد الظاهر ونقلت عنهما سائر المصادر. انظر الحاشية السابقة.

[٨٠] المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٦٣٧، ٦٣٨.

[٨١] انظر ابن العماد، شذرات الذهب، تحقيق عبد القادر ومحمود الأرناؤوط، طبعة دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، مجلد ٧، ص ٦١٠، ٦١١.

[٨٢] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٨٢.

[٨٣] المقريزي، المصدر السابق، ص ٦٣٧، ٦٣٨.

ودمشق، وعجلون وبصرى وحمص وتدمر، وقلعة الكهف والرصافة، والكرك وحلب وشيزر بالمشرق، وغرباً إلى برقة، وجنوباً إلى بلاد النوبة، غير قيسارية من بلاد الروم، وفتح انطاكيا وصفد وأرسوف، وحصن الأكراد والمرقب وغيرها، فضلاً عن ما أخذه من حصون الاسماعيلية، وحارب التتر واستخلص منهم بلدان كثيرة.[٨٤]

هذا غير ما عمره من المباني والحصون، والجسور على الأنهار الكبار، وما حفره من الترع والخلجان داخل مصر، وما بناه من المساجد والعمائر الدينية الكثيرة، كالمدارس ونحوها، وما جدده من الجوامع القديمة، ورممه من المنشآت، وقد اهتم بالمعاملات المالية، فضرب الدنانير الذهب والدراهم الفضية الخالصة الجيدة، وأحسن تدبير كافة الأمور المعيشية، وضبط معاملات الناس وحياتهم داخل المملكة عظيمة الاتساع، فضلاً عن إقامته للعدل وحبه للشرع،[٨٥] ونشره الفضيلة والأخلاق الحميدة في ربوع الدولة، بإزالة المفاسد قدر جهده، وأعمال البر والأوقاف الجليلة، التي جعلها على المساجد والمدارس والزوايا، والصلات والصدقات الكثيرة، التي بذلها لوجه الله تعالى، والاحسان للفقهاء ومحبة الصلحاء، وتوقير العلماء، وأهم ما قام به الظاهر هو إحياء الخلافة العباسية التي جعل مقرها بالقاهرة، وكانت واجهة للدولة جعلتها في مركز الصدارة للعالم الاسلامي كله في ذلك الوقت.

كان بيبرس سلطاناً قال عنه المعاصرون : "لم نرى في هذا الزمان ملكاً مثله في عزمه وهمته.."،[٨٦] فقد كان شديد اليقظة والذكاء، ديّناً عالي الهمة، قوي البأس لم يألُ جهداً في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، ورفع رايته عالية خفاقة، تزهو بالمجد والفخار.

أما المقريزي، فلم يفته بعدما دوّن كل ما فعله الظاهر بيبرس من أعمال البر والاحسان، وما أدخله على الدولة من إصلاحات وحسن تدبير، وتعمير وبناء، وعرّف جهاده وبلاءه الحسن في استرجاع الأرض الإسلامية من براثن الأعداء،

---

[٨٤] ابن عبد الظاهر، نفسه، ص ١٥١ ـ ١٥٨، ١٦٢ ـ ١٦٦، ٢٢٩ ـ ٢٣٥، ٢٥٤ ـ ٢٦٨، اليونيني، المصدر نفسه، ص ٢٥٥، ٢٥٦، ابن خلكان، المصدر السابق، ص ١٥٥، ١٥٦، ابن كثير، المصدر نفسه، ص ١٥، وعن العداء الذي قام بين القبيلة الذهبية وهولاكو، وحرض عليه بيبرس، انظر رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، مجلد ٢، ج ١، ص ٣٣٣ ـ ٣٤٠، ابن واصل، المصدر نفسه، ص ٣٥٩.

[٨٥] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٧٦، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٨٨، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٦، ص ٣١٤ ـ ٣١٨

[٨٦] ابن خلكان، المصدر السابق، ص ١٥٥، اليونيني، نفسه، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٧، ٢٦٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٥، ١٦.

فبعدما وفّاه حقه وأعلى ذكره، لم يشأ أن يترك سيرته إلا وقد أخذ عليه مثالبه وأحصي إليه أخطاءه، فيقول : "إنه كان كثير المصادرات للدواوين، كثير الجباية للأموال من الرعية، وأحدث وزيره.. في أيامه حوادث جليلة.. صادر أرباب الأموال حتى هلك كثير منهم تحت العقوبة، وأخذ جوالي الذمة مضاعفة..".[٨٧] وقال بعضهم أيضاً : "ولولا ظلمه وجبروته في بعض الأحايين، لعد من الملوك العادلين."[٨٨]

وختاماً؛ فمهما كان من أمر هذا البطل المغوار بيبرس، وسابقه الشهيد العظيم قطز، فإن التاريخ سوف يذكرهما بكل إجلال وإعزاز، فقد أسديا لبلاد الإسلام أيادي بيضاء وأعمال لن ينساها المسلمون على مدى الدهر، وتعاقب السنون، وسوف يظلا اسميهما مكتوبان بأحرف من نور، إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها، من الظالمين المعتدين، والمظلومين المعتدى عليهم، على حد سواء.

المصادر المطبوعة :

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على – سنة ٥٥٥ هـ - سنة ٦٣٠ هـ) : الكامل فى التاريخ، جزئين ، نشر محمد العرب ، طبع المكتبة المصرية ، الطبعة الأولى ، صيدا بيروت ، سنة ١٤٢٦ هـ / سنة ٢٠٠٥م

ابن أياس (أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى الناصرى) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، خمسة أجزاء فى ستة مجلدات ، تحقيق محمد مصطفى، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

الدوادارى (ابن ايبك أبو بكر بن عبد الله) : كنز الدرر و جامع الغرر – الدرة الذكية فى أخبار الدولة التركية. الجزء الثامن ، تحقيق أولرخ هارمن نشر D. Robischon . Freiburg ألمانيا سنة ١٩٧٠ م ، القاهرة سنة ١٣٩١ هـ / سنة ١٩٧١م

بيبرس المنصورى الدوادار (الأمير ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار، نائب السلطنة فى مصر – المتوفى سنة ٧٢٥ هـ)

- مختار الأخبار
(تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية إلى سنة ٧٠٢ هـ)

[٨٧] انظر السلوك، ج ٢/١، ص ٦٣٨ – ٦٤٠، مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد والدرّ الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، حققه وترجمه إلى الفرنسية بلوشيه، المكتبة الوطنية الفرنسية، فرنسا، ١٩١٦م، ج ٢، ص ٢٨٧، ٢٨٨.

[٨٨] ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٧، ص ٦١١.

تحقيق : دكتور عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية
الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م

- زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة
(الجزء التاسع – عصر سلاطين المماليك – من ٦٥٢ - ٧٠٧هـ)
تحيق : دكتورة زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث،
القاهرة ٢٠٠١م

- التحفة الملوكية فى الدولة التركية
(تاريخ دولة المماليك البحرية فى الفترة من ٦٤٨ هـ - ٧١١ هـ)
تحقيق : دكتور عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية
الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكى) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.

تحقيق : فهيم محمد شلتوت – د . جمال محمد محرز – د . إبراهيم طرخان
من الجزء ٧ إلى ١٦، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة،
طبعة القاهرة،١٣٩١ هـ /١٩٧٠ - ١٩٧١م

- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى. تحقيق : د. محمد محمد أمين
تسعة أجزاء، مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب
طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م

الجزرى (شمس الدين محمد بن إبراهيم) : حوادث الزمان.

تحقيق أولرش هارمن ، نشر D. Robischon .Freiburg ألمانيا، ١٩٧٠م

ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر – المتوفى سنة ٧٧٩ هـ) :

تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه.
ثلاثة أجزاء ، تحقيق دكتور محمد محمد أمين ، الهيئة العامة للكتاب
القاهرة، ١٩٧٦م

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر) :

وفيات الأعيان و إنباء أبناء الزمان. تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد

ستة أجزاء، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م

ابن دقماق (صارم الدين ، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى) :

- الجوهر الثمين فى سير الملوك و السلاطين. تحقيق : محمد كمال الدين عز الدين على، جزأن، عالم الكتب – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار. (فى تاريخ مصر و جغرافيتها)، تحقيق : لجنة أحياء التراث العربى، دار الأفاق الجديدة، طبعة بيروت، بدون تاريخ.

الذهبى (الحافظ شمس الدين – توفى سنة ٧٤٨ هـ) : دول الإسلام.

مختصر كتاب : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، المسمى بتاريخ الإسلام الكبير. الجزء ١- ٢، إحياء التراث الإسلامي، قطر، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .

السبكى (قاضى القضاة – تاج الدين عبد الوهاب السبكى) : معيد النعم و مبيد النقم. الطبعة الأولى، تحقيق : محمد على النجار، أبو زيد شلبى، محمد أبو العيون، دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م

الدينارى : سيرة الظاهر بيبرس.

دار القلم – لبنان، طبعة بيروت، عام ١٩٨٢م

ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) : تاريخ ابن الفرات.

المجلد ٨ - ٩، الجزء ٢، تحقيق د. قسطنطين زريق ود. نجلاء عز الدين، المطبعة الأمريكانية (الجامعة الأمريكية فى بيروت) ، بيروت ١٩٣٨ - ١٩٣٩م .

ابن قاضى شهبة (تقى الدين أبو بكر الأسدى الدمشقى) : تاريخ ابن قاضى شهبة – اختصره من تاريخه الكبير، المجلد ١، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمى الفرنسى للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٧م .

القلقشندى (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء. دار الكتب السلطانية المطبعة الأميرية، القاهرة، مطبوع الكتاب كاملاً من سنة ١٩١٣ – ١٩١٩م

ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل) : البداية و النهاية. المجلد ٧، الجزآن ١٣، ١٤، دار الفكر العربى، القاهرة (بدون تاريخ) .

كومنينا (الأميرة أنا كومنينا Anna Comnena) : الكسياد – The Alexiad.

ترجمه عن النص الإنجليزي، مع مراجعتها على النص اليوناني، د. حسن حبشي، الطبعة الأولى، المشروع القومى للترجمة والنشر بالمجلس الأعلى للثقافة، العدد ٦٤٠، القاهرة، ٢٠٠٤م .

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) :

- السلوك لمعرفة دول الملوك. أربعة أجزاء فى أثنى عشر قسم، حقق الجزئين ١ - ٢ : د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٨م، وحقق الجزئين ٣ – ٤ : د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٢م.

- المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار. جزآن، دار صادر، طبعة بيروت (بدون تاريخ)، وطبعة مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، أربع مجلدات، تحقيق د. أيمن فؤاد سيد، لندن، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب فى فنون الأدب. الأجزاء من ٢٩ – ٣٣، الجزء ٣٠ تحقيق : د. محمد عبد الهادى شعيرة، مراجعة محمد مصطف، القاهرة، ١٤١٠هـ /١٩٩٠م، الجزء ٣١ تحقيق : د. سيد الباز العرينى، مركز تحقيق التراث بالهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

ابن واصل (جمال الدين بن سالم) : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب. الأجزاء من ١ - ٣، تحقيق د. جمال الدين الشيال، الادارة العامة للثقافة بوزارة الثقافة والارشاد القومى، سلسلة تراثنا ، دار القلم، القاهرة، ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣ – ١٩٦٠م، الأجزاء ٤ - ٥، دار الكتب والوثائق القومية، تحقيق د. حسنين محمد ربيع، مراجعة د. سعيد عاشور، القاهرة ١٩٧٢ – ١٩٧٧م .

اليونينى (قطب الدين موسى بن محمد – المتوفى ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م)

ذيل مرآة الزمان. المجلد ٤، الطبعة الأولى، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد – الهند، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م .

الفيروز أبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى) : القاموس المحيط. أربعة أجزاء ، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية، ١٣٠١هـ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٧ - ١٤٠٠هـ / ١٩٧٧ – ١٩٨٠م .

المراجع العربية :

د . زبيدة محمد عطا :

- اليهود فى العالم العربى – دراسة تاريخية فى قضايا الهوية – الاندماج – القدس. الجزء الأول، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

- يهود العالم العربى – دعاوى الإضطهاد، قراءة فى خرافة الإضطهاد. دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية، الطبعة الأولى، الجزء الثاني، القاهرة، ٢٠٠٤م.

د. سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك. دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، القاهرة سنة ١٩٦٢ م .

- الحركة الصليبية، الجزء الثانى، الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م.

- العصر المماليكى فى مصر والشام. الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٩٤م.

- الظاهر بيبرس. سلسلة تاريخ المصريين رقم ٢٠٧، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة، ٢٠٠١م.

المراجع الأجنبية :

Ayalon (David – Yerusalem) :

((The Mamluks and sea power – Aphase in the struggle between jslam and Eropean Christendom)) P . 326 – 327
مقالة داخل كتاب :

((Literarische Anthologien der Mamlukenzeit))
Christian - Albrechts – universitat .
Kiel 2003

Demombynes (Gaudefroy)

(Professeur a l'eole des Langues Orientales vivantes) :
((La syrie a l'epoque des Mamelouks – d'apres les Auteurs Arabes))
Librairie Orientaliste (Paul Geuthner)
Paris 1923

R . Dozy :

((supplement ause Dictionnaires Arabes)) 8 Volumes
Librairie du Liban .
Beyraute 1968

Franke (Herbert) :

((Akten des Vierundzwanzigsten Internationalen Orientalisten – Kongresses)) .
Deutsche Morgenlandische gesells chaft E. V . Munchen
28 August bis 4 september 1957

Haarmann (Ulrich) :

((die Mamluken – studien zu ihrer geschichte und kultur))
Asien und Afrika
Band 7 2003 Deutsche

Haarmann (Ulrich) :

((Quellestudien zur Fruhen Mamlukenzeit))
D . Robischon . Freiburg 1970

A N N K . S . Lambton (Professor of Persian)

Lewis (Bernard) – (Institute for Advanced Stady , Princeton) :

((The Cambridge History of Jslam)) (Volume 2 B)
((Islamic society and civilization))
Cambridge University Press
© London . New York . Melbourne Cambridge University Press 1970
Library of Congress Catalogue Card number : 73 – 77291

Humphereys (R . Stephen) :

((Islamic History – A Framework For Inquiry))
The American University in Cairo – Press university Press copyright © 1991 by Princeton

Jackh (Ernest) :

(advisory Editor – Author of The Rising Crescent : Turkey yesterday , Today and Tomorrow) :
((Background of the Middle East))
Cornell University Press
Ithaca , New York 1952

Lavoix (M . Henri) :

((Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque Nationale – Espagne et Afrique))
Imprimerie Nationale . Paris 1841

Leder (Stefan) :

((Postklassisch und Vormodern Beobachtungen Zum Kulturwandel in der Mamlukenzeit))
Vol . 7 von Asien und Afrika P . 289 – 313

EB – Verlag
Hamburg 2003

Brokelmann (Carl) :

((Geschichte der Arabischer literature)) 2 Volumes
Weimar , Berlin 1898 -1902
3 suplemtband Leiden (الطبعة الثالثة) 1937 – 1938

Grunebaum (Gustav Von) :

((Medieval Islam))
Chicago – 1947

Little (Donald Presgrave) :

((History and Historioyraphy of the Mamluks))
Variorum Reprints
London 1986

Little (Donald P.) :

((The use of documents for the stady of Mamluk History))
The Mamluk history))
The University of Chicago
Mamluk Studies Review
Middel East Documentation Center (MEDOC)
Chicago 1997

Pool (Stanley) :

((History of Egypt in the Middle Ages))
Hethuen , co . Ltd .
London 1925

Strange (G.LE) :

((Baghdad During The Abbasid Calipbate))
Contemporary Arabic And Persian Sources .
Oxford : At the Clarendon Press 1900

K . V . Zettersteen :

((Beitrage zur Geschichte Der Mamlukensultane))
(In Der Jahren 690 – 741 Der Higra Nach Arabischen Handschriften) E . J . Brill , Leiden .